

حوار مع الأستاذ محمد زنيبر

حاوره : محمد الفلاح العلوي
ومحمد معروف الدفالي

تعريفا بالرعيل الذي حمل على عاتقه، مهمة بناء قسم التاريخ، بالجامعة المغربية، تدريسا، وبحثا، وتوجيها، وإشرافا، ارتأت المجلة، إجراء حوارات مع هؤلاء الأساتذة، نتعرف من خلالها، ببعض الخطوط العريضة، في مسار حياتهم، واهتماماتهم، ووجهة نظرهم حول مجموعة من القضايا، التي تهم كتابة تاريخ المغرب.

ويسرنا أن يكون الضيف الأول في هذا الركن، هو الأستاذ المحترم، محمد زنيبر، الذي أجرينا معه، حوارا مطولا، وشيقا، نتمنى أن نكون من خلاله قد استوفينا بعض ما نطمح اليه، مع أننا حصلنا من الأستاذ على وعد، بلقاء أو لقاءات أخرى، نغطي من خلالها، بعض ما فاتنا في هذا الحوار.

- ما الذي يمكن ان يقوله أستاذنا عن بداية حياته ؟

ازددت بمدينة سلا سنة *1923* من أسرة معروفة بالمدينة، إذ كان والدي قاضيا، وكانت له مواقف معارضة للمشاريع الفرنسية بخصوص تملك الأرض والاستحواذ عليها، وقد اعتزل القضاء نتيجة مواقفه هذه، واشتغل بالافتاء لأنه فقيها في العلوم الدينية واللسانية، وكان الافتاء مهنة حرة. استفدت من أبي منذ الصغر. درست في المدرسة الابتدائية المغربية، ولم اجتز بها الشهادة الابتدائية إذ نقلني أبي الى ثانوية "كورو" العصرية، وبقيت بها الى أن حصلت على شهادة الباكالوريا سنة *1945* ، وبعد ذلك أرسلني المغفور له محمد الخامس الى فرنسا ضمن بعثة طلابية تتكون من عشرة افراد على نفقته الخاصة، وكان

من بين أفراد البعثة الأستاذ عزيز الحبابي، ومحمد الدويري، وإبراهيم قدارة، ومحمد بن هيمة، والطيب بن عمر...

وفي باريس سجلت نفسي بكلية السوربون لدراسة الفلسفة والآداب، وقضيت السنة الأولى على هذا الأساس، ثم أضفت إليهما دراسة التاريخ، وحصلت على شهادتين، وفي سنة *1950* نلت الإجازة الكاملة، وعدت الى المغرب، وتزوجت، وكانت الأوضاع آنذاك سيئة على المستوى السياسي بين الوطنيين وسلطات الاحتلال، فقد جاء المقيم العام الفرنسي «المارشال جوان» الى المغرب ليوقف حسب زعمه الوطنيين عند حدهم ويمنع محمد الخامس من مواصلة نشاطه السياسي، الذي كان يتمثل في المطالبة بإلغاء الحماية والحصول على الاستقلال.

بعد أن عدت الى المغرب فكرت في الاشتغال بالصحافة، لكني تراجعت عن ذلك حينما وقعت مضايقة الصحف الوطنية من طرف الفرنسيين، وبما أنني كنت محتاجا الى شغل قار يساعدني على تحمل مسؤوليات الزواج، فقد قبلت اقتراح فرنسا بالاشتغال بالتعليم كأستاذ، وكانت لي رغبة في تدريس الفلسفة، لكن الفرنسيين حالوا دون تحقيق رغبتي بدعوى أن هذه المادة لا يدرسها إلا فرنسي، وأسند لي تدريس مادة اللغة العربية بثانوية مولاي يوسف التي بقيت بها الى رجوع محمد بن يوسف من منفاه.

- ما هي علاقة الأستاذ محمد زنيبر بالحركة الوطنية؟

ذكرت أن والدي كانت له علاقات سيئة مع الإدارة الفرنسية، وأنه غادر القضاء حتى لا يواصل عمله معهم، ومنذ ذلك الحين صنف نفسه في جملة المعارضين لنظام الحماية، وكان هذا في أواسط العشرينات. اتصل به رجال الحركة السلفية لأنه كان من علماء السلفية، يلقي دروسا في المساجد ومحاضرات في الكلية، وعندما ظهرت الحركة الوطنية سنة *1930*، كان من الداعين لمقاومة الظهير البربري، بل كان أحيانا يترأس وفد السلاويين للاحتجاج على هذا الظهير.

- هل شغل الوالد مهنة القضاء في سلا؟

- لا، شغل القضاء في سطات، ثم تووريرت، ثم سيدي سليمان في

الغرب، كما قلت كانت له هذه الصفة، صفة رجل وطني سلفي، وكان بيتنا يرتاده الوطنيون، والصحفيون الوطنيون، كقاسم الزهيري ، والمرحوم سعيد حجي. كبرت إذن في هذا الجو، وكنت أستمع يوميا لأحاديث عن الوطنية، ومشاكل الوطنية. ولما دخلت الى درجة الوعي بدأت أقرأ عليه الصحف العربية - لأنه في الثانوية الفرنسية كنا لا نتعلم العربية - وكان يقوم أثناء قراءتي للجريدة العربية بتصحيح الأخطاء، وبتلك الطريقة تعلمت أن الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب... ومع مجالسته باستمرار تمكنت من اللغة العربية. كبرت في هذا الجو كما قلت وبدأت أعي الحركة الوطنية، في أواخر الثلاثينات بعد مظاهرة 1937 التي نفي فيها علال الفاسي، إلى الگابون، ومحمد بن الحسن الوزاني الى ادزر، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وانهزمت فرنسا، وكنا آنذاك في حالة نشعر فيها أنه لابد أن يقع انتقام من هذه الدولة التي كانت جاثمة على صدر المغرب، وفي هذا الشعور نوع من الانفراج الداخلي، وبدأنا آنذاك نرهص ونتحسس ولو من بعيد بأن المغرب لابد وأن يستقل، ثم ظهر محمد الخامس على صورته كزعيم، وكرجل وطني، وهذا لم نكن نعرفه من قبل، لأن السلطان كان مضطرا أن يتعامل بنوع من التقية مع سلطات الحماية، ولكن أثناء الحرب العالمية الثانية، بدأت تظهر منه إشارات للشعب، أنه يناصر الحركة الوطنية، ثم جاءت زيارة روزفلت للدار البيضاء بعد ذلك بصورة خاصة، وكنا وقتها نشعر بشعور وطني قوي، وجاءت قضية العريضة، وأثناءها كنت من الشباب الوطنيين الذين يتحركون بسلا، يقومون بالدعاية والتوعية. وفي 29 يناير 1944 وقعت المظاهرة المشؤومة إثر تقديم عريضة الاستقلال، - التي كانت ستقدم يوم 11 يناير - وألقي القبض على بلافريج وجماعة من الوطنيين، وعمت هذه المظاهرة العظيمة مدن فاس، وسلا، والرباط... وبعد يومين من وقوع هذه الأحداث ألقي القبض على والدي وعلى أخي وعلي، واقتدنا الى معسكر «قشلة السرسور» ثم الى معسكر گارنيي (مولاي إسماعيل الآن)، وبقينا شهرا كاملا لا تعرف العائلة عنا شيئا، ثم عدنا الى سلا، ومنها الى السجن المدني بالرباط، وقضينا في السجن ثلاثة شهور وكان من المفروض أن اجتاز امتحان الباكالوريا في تلك السنة، إلا أن ما حدث حال دون ذلك. وفي السنة الموالية كنت من أول الناجحين في الباكالوريا. ثم اتجهت الى فرنسا في أكتوبر 1945، بعد أن فتحت الطريق التي كانت مغلوقة بسبب الحرب، وكان عل متن الباخرة

المرحوم عبد الرحيم بوعبيد الذي ذهب ليحضر الإجازة في الحقوق، كما كان هناك عدد من الطلبة مثل محمد الدويري، وعبد الرحمان بن عبد العلي، والطيبي بن عمر، وإبراهيم قدارة، والدكتور محمد الحبيب، وأحمد السباعي رحمه الله... على أي كانت هناك جماعة من الطلبة ظلت في باريس أثناء الحرب.

قضيت في فرنسا سنوات إنهاء دراستي، وأثناء ذلك كنا نشتغل كمناضلين في صفوف الحركة الوطنية، نتحرك في كل الاتجاهات، وكانت مهمتنا الرئيسية الاتصال بالفرنسيين، وبالعمال المغاربة الذين كان عددهم يفوق ثلاثين ألف عامل معظمهم في باريس. كان الاتصال في الحفلات الرسمية والأعياد الوطنية (ذكرى عيد العرش 18 نوفمبر)، وكنا نجتهد في أن يكون ذلك الحفل فخما، لأن الغرض هو التعريف بالمغرب وبقضيته، وإشعار الفرنسيين بأن هناك شعبا مغربيا له خصوصياته. ذلك أن الفرنسيين كانوا متأثرين بالدعاية الاستعمارية، فهم ليسوا شريرين، ولكن كانوا يعتقدون عن حسن نية أن فرنسا تقوم بسياسة تحضير وتمدين الشعوب المستعمرة، تعلمهم وتهيؤهم، ولم يكونوا يعرفون أن السياسة الاستعمارية مبنية على الاستغلال، إذن كنا نتصل بفئات من الفرنسيين ونزيل من أذهانهم هذا الاعتقاد، هذا العمل كان يتم عن طريق الاتصالات الشخصية أو عن طريق التنظيم.

كان لنا ناد في باريس مقره 20 زنقة سيربانت، يلتقي فيه المغاربة من كل الاتجاهات (الاستقلاليون وهم الأكثرية، ثم الشوريون - كعزيز الحبابي، والطيب بوطالب، ويونس الشامي - وكذلك بعض الشيوعيين) وكانت تجمعنا أحيانا جوانب إنسانية..

عندمارجعت الى المغرب سنة 1950، والتحقت بسلك التعليم بقيت على هذه الاتصالات، وكلفت بتسيير خلية التربية الوطنية بسلا، وكانت هناك جماعة تسمى جماعة التربية الوطنية، وكان المسؤول عنها مكلفا بتكوين مشرفين على خلايا حزب الاستقلال بالمدينة. ثم جاء نفي محمد الخامس ووقع فتور شيئا ما في نشاطنا، وجاءت المقاومة المسلحة، وكنا نتصل سرا ببعض أفرادها، وأصبح عدد من طلبتي أثناء تدريسي إياهم مقاومين.

- هل كانت لخليتكم علاقة مع الخلايا السرية التي هيئت للعمل المسلح؟

لا ، خلية التربية الوطنية لم تكن كذلك، فحزب الاستقلال في الحقيقة لم يفكر ولم يرغب في أن يكون مسؤولا بصورة معروفة عن المقاومة، وكان لا يرغب في أن يقام أي تنظيم مسلح باسمه، لم يكن هذا جبنا ، ولكن كان داخلا في التنظيم، لأن المقاومة المسلحة كانت عملا ثوريا ، وليست نظاما عاديا ، في حين أن أغلب أفراد الحزب كانوا من المثقفين غير المهيئين للعنف، ولكن أفرادا من الشعب تكونوا على أيديهم، وقاموا بهذا العمل متطوعين، لا يعني هذا أن عددا من الوطنيين لم يدخلوا الى المقاومة. فهناك أسماء من كبار المقاومين تكونوا في صفوف الخلايا : علال بن عبد الله مثلاكان في خلية من خلايا حزب الاستقلال، الزرقطوني كذلك، الفقيه البصري...

وقد كان الحزب كتنظيم سياسي يريد أن يحافظ على حظوظ الاتصال عند المفاوضات. وأن يكون قادرا على المرور من مرحلة المقاومة الى مرحلة المفاوضات.

على كل حال نحن كمناضلين عاديين كانت لنا إمكانات للتعرف علي بعض المقاومين أثناء تلك الفترة التي دامت سنتين ونصف (غشت *1953* إلى أواخر *1955*).

انطلقت المقاومة بعد نفي محمد الخامس، وقادة الحركة الوطنية كلهم في المنافي والسجون، واعتقد الفرنسيون أنهم بهذه الطريقة سيتمكنون من إسكات الشعب المغربي وإنهاء النشاط الوطني، لكن الأيام بينت خطأهم، بإطلاقهم سراح الوطنيين، وإرجاعهم محمد الخامس.

تحولت الحركة الوطنية من حركة معارضة لنظام الحماية، ونضال من أجل الاستقلال، الى حركة من أجل بناء مغرب مستقل. وكان ضروريا في هذه الفترة أن تقع مناقشات داخل صفوف الحركة الوطنية، وأن تظهر نزعات ونزاعات.

وأمر هنا مرور الكرام على كثير من المراحل التي مرت منها الحركة الوطنية في الفترة الجديدة، لأبين كيف انتميت شخصيا الى الجماعة التي آمنت بضرورة التغيير.

في سنة *1959* ، انفصلت جماعة من حزب الاستقلال الأصلي لتكون حركة أخرى كان من قادتها المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد وغيرهما ، هذا الاختيار الأخير أصبح لعدد من شبان ذلك الوقت أمرا واردا ، لأن القادة القدماء اعتبروا أن الهدف الذي كانوا يناضلون من أجله قد تحقق وهو الحصول على الاستقلال. ماذا سيكون داخل هذا الاستقلال؟ ما هو مضمون هذا الاستقلال؟ ما هو بناء هذا الاستقلال؟ هذا الشيء كان غامضا في أذهانهم، ولم يفكروا فيه بجد. لكن الطائفة التي لم تقتنع بهذا الموقف، كانت تريد أن تبني المغرب على أساس جديد، على أساس تفكير فيه أولا تحقيق الديمقراطية، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وأهداف أخرى كثيرة. وفي هذا الاتجاه سار عدد من الشباب. فكونا هذه الحركة الجديدة.

ولكني شخصيا لم أبق في طليعة المناضلين كما كنت من قبل لأنني أولا أصبحت أبا لعائلة كبيرة تتركب من ستة أولاد. ثم دخلت آنذاك، بعد أن جربت حظي في الديوان الملكي، بعد أن استدعاني المغفور له محمد الخامس للاشتغال في الديوان الملكي مع جماعة من الشبان، وقضيت هناك ثلاث سنوات، ثم انتقلت الى وزارة الشؤون الخارجية على أساس أن أصبح من المؤسسين لهذه الوزارة، ومن الأفراد الذين ربما سيعملون على خلق سياسة خارجية، ولكني بعد ذلك فضلت أن أعود الى التعليم، وهكذا كان الأمر.

- استاذ كنتم في حقيقة الأمر بالنسبة لهذه المرحلة، قد عايشتم الحركة الوطنية، واشتغلتم في مناصب لها أهميتها، مثل الديوان الملكي ووزارة الخارجية. لماذا هذا التحول الذي فضلتموه ورجعتم الى ميدان التعليم؟

ربما هروبا من المسؤوليات التي لا حيلة للإنسان في تلافيها ، فالذي يدخل مثل هذه الوزارات والدواوين المهمة، يصبح من أولائك الذين يتحملون مسؤولية القرارات السياسية، يشارك في عدد من التدابير والأعمال. اذا كان متفقا مع كل تلك التدابير داخل ضميره فالأمر لا يطرح مشكلا. وإذا كان يشعر بأنه غير مرتاح لهذا القرار أو بهذا الاتجاه فآنذاك من الأفضل أن لا يستمر في تحمل المسؤولية. لهذا مع تجربتي الشخصية كما ذكرت شعرت بأنني سأشارك في مسؤوليات وقرارات ربما أنا غير راض عنها. فلما رأيت الفرصة مواتية

للإفلات من هذه المكيدة لم أتردد. الشيء الجيد في التعليم وهو أن الأستاذ رغم كونه موظفا، لكنه كصاحب مهنة حرة، يتصرف حسب مسؤوليته ويقول ما يعتقد، والأشياء التي لا يؤمن بها لا يقولها. فهو يتمتع بنوع من الحرية. هذا هو الشيء الذي أغراني في العودة الى التعليم. لا يعني هذا أن عددا من الاصدقاء الذين يوجدون في الخارجية أو الديوان الملكي أو دواوين أخرى ليسوا أناسا فضلاء، بالعكس. ولكني على كل حال وجدت هذه الفرصة، وكان من الممكن أن لا أجدها وربما بقيت أنا أيضا في الخارجية. فقد اخترت بين التعليم والبقاء في الخارجية، فآثرت العودة الي التعليم لأنني كنت ملحقا بالتعليم في وزارة الخارجية، فضلته تلافيا لكل تلك المشاكل التي ذكرت.

- استاذ لو سمحتم، نحن الآن في سنة 1959، نعود شيئا ما إلى الوراء، فقط بعض ذكرياتكم عن علاقتكم المباشرة مع بعض اقطاب الحركة الوطنية، إذا كانت هناك بعض اللقاءات المهمة جدا.

في الحقيقة كنت آنذاك من الأبناء المدللين داخل الحركة الوطنية. فزعماء الحركة كانوا ينظرون الي كشاب وإلى أقراني كأبناء لهم، كنا محط عناية ورعاية، والفضل يرجع الى الحاج أحمد بلافريج الذي دعاني بصورة خاصة بعد نهاية المؤتمر الثاني لحزب الاستقلال، وقال لي : سيدنا يريدك أن تشتغل في الديوان الملكي، كان ذلك قبل 1956، يعني بعد أسبوع أو أسبوعين من عودة محمد الخامس، وكنت آنذاك أدرس في ثانوية مولاي يوسف، ولم يكن مني إلا أن امتثلت لأمره، هذا مثل من الأمثلة التي تبين العلاقات التي كانت لي مع هؤلاء القادة. مثل آخر، كنت بطلب من هؤلاء الوطنيين أكتب في جريدة العلم، ويعتبرونني عضوا مساعدا في هذه الجريدة. فآنذاك كانت تتكون جماعة خاصة بالصحافة، وكانت جريدة العلم تتغذى بأقلام مثقفين في عدد من المواضيع، وقد كنت أذهب أنا والأستاذ غلاب، وعبد الرحمان القادري في بعض الأوقات كل يوم لمساعدة الجريدة والمشاركة في أعمالها.

على كل حال، كنت محط عناية كبيرة من طرف هؤلاء القادة، بل كانت لي علاقات طيبة مع قادة حركات أخرى، مع قادة حزب الشورى والاستقلال، كنا نتصل دائما، ونلتقي على صعيد الوطنية، ونتبادل الرأي، كان هناك نوع من التسامح في بعض الحالات. وفي حالات أخرى وقعت

أحداث وصراعات بين حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال...

- لقد انتشرت في بداية الاستقلال مجموعة من النزعات والنزاعات بين الهيئات، نعرف انه في فترة الحماية كان هناك خلاف بين عناصر الحركة الوطنية وبين هيئاتها وتنظيماتها، ولكنه لم يصل الى ما وصل اليه في بداية الاستقلال، هذا جانب، وهناك من يرى ان من اسباب احتدام الصراع، الصراع من اجل المناصب او من اجل المصالح او شيء من هذا القبيل، وهناك كذلك من يذهب الى انه حتى التعتيم المتواجد الآن في تاريخ الحركة الوطنية، وتاريخ المقاومة المسحلة يعود اساسا الى هذه المرحلة، والصراعات في هذه المرحلة. فماذا ترون في ذلك؟

في الواقع أسباب الخلاف هي حسب قضايا، لكن بصفة عامة الخلاف في معناه النبيل كان خلافا في الرأي، خلاف بين الذين كانوا يقتنعون بأن تسير الأمور في المغرب بعد الاستقلال دون التفكير في تغيير كبير، وبين الذين كانوا يرون ضرورة تحويل نظام الحكم ونظام المخزن الى دولة عصرية لها قوانين ولها ضوابط ولها دستور، يعني أن هناك جيلين داخل الحركة الوطنية.

طبعا كان هناك أشخاص لهم مصالح شخصية تؤثر عليهم داخل هذه الحركة، ولكن هؤلاء الذين يمكن أن ننعتهم بالانتهازيين والأنانيين لم يكونوا يعبرون أمام الملا عن هذه الدوافع، كانوا يستتيرون وراء إيديولوجية محترمة. المهم هو أنه إذا حللنا ماذا يقع آنذاك في الساحة الوطنية نجد خلافا بين فئتين من الوطنيين، فئة تذهب مذهب الاعتدال، لم تكن تقل بعدم الأخذ بالدستور، ولكن كانت لا تريد السير في هذا الاتجاه بكيفية حازمة وسريعة، تريد أسلوبا معتدلا، أسلوبا متمهلا. بالعكس، الفئة الأخرى كانت تريد أن يدخل المغرب في طور سريع كمنح الدستور، وتنظيم الاقتصاد علي أساس التصميم، والإصلاح الزراعي وتطبيق نوع من الاشتراكية نظرا للتفاوت بين الطبقات في المغرب. كان هذا أساس الخلاف في معناه النبيل طبعا. أما إذا أردنا أن ندخل في تحليل بعض الاتجاهات حسب المصالح، فهنالك إمكانية الحصول على بعض التحليلات الأخرى، ولكن لا ينبغي أن نذهب كذلك شططا، إذا اعتبرنا أن كل من أتى برأي له مصلحة، سنتعسف في الحكم على الأشياء.

- الم تكن هذه النزعات والنزاعات من وراء التعتيم الذي لحق تاريخ

الحركة الوطنية ككل او تاريخ المقاومة، اي أن هذه النزعات تحكمت حتى في الكتابة فيما بعد؟

ليس من السهل كتابة تاريخ الحركة الوطنية بالصورة المرضية، لأن الذي سيكتب تاريخ الحركة الوطنية ربما سيلجأ إلى مصادر من نوع معين، وهذه المصادر قد تميل الى جهة معينة أو إلي ترجيح كفة على أخرى، فالموضوعية في هذا الباب ليس من السهل الحصول عليها دفعة واحدة. ولكن مع ذلك أعتقد أن الرجال والحركات التي اشتغلت أيام الحركة الوطنية وتسييرها وتطويرها معروفة، لا يمكن أن يقع فيها الخطأ. وهنا لو استعملنا المثل الذي يقول : «فم من شربت منه الحساء». إذا لجأنا الى الوثائق الفرنسية والى الدراسات الفرنسية سنجد آنذاك وسيلة للتعرف على الجهات والأشخاص والحركات التي أنزلت الضربات القوية بالنظام الاستعماري، وآنذاك يمكننا أن نخرج بأحكام فيها كثير من الانصاف للجميع. وهذا طبعا يتطلب مجهودا كبيرا في البحث، وقد تصدى للكتابة في الحركة الوطنية عدد من الناس اجتهدوا، وينبغي أن ننوه بعملهم، ولو كان فيه خطأ، ولو كان فيه نوع من التعتيم أو النسيان، لكنهم على الأقل حافظوا على شيء من هذه الحركة التي ربما كانت ستذهب ضحية النسيان لو لم يكتب أحد عنها.

- قبل ان نعوج مرة أخرى الى التعليم والثقافة، سؤال آخر إذا شئنا سياسي. من حزب الاستقلال كان اختياركم نحو الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ولكن في مرحلة أخرى نحو الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، الالتحاق الأول كان بدافع مسايرة العصر، نريد التعرف على الالتحاق الثاني فقط؟

الالتحاق الثاني كان أمرا طبيعيا، لأن أحد الدوافع لتأسيس الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية هو الخلاف الذي أصبح قائما بين المنظمة النقابية للاتحاد المغربي للشغل والجناح الأكبر من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. فالاتحاد الوطني للقوات الشعبية ظل يعتمد طوال خمسة عشر سنة تقريبا على الاتحاد المغربي للشغل لمسايرة نشاطه السياسي، كحركة اشتراكية كان يرتكز على النقابة شأنه شأن الحركة الاشتراكية في العالم، لكن النقابة لم تكن تقبل أن يكون حزب الاستقلال نائبا عنها، كانت تريد أن يكون الحزب ذيلا لها. وهذا

التحليل كنا نشعر به ويجري فيما بيننا دائما، نشعر بأن النقابة تتأسف. وإذا كان اختيار القطيعة مع الاتحاد المغربي للشغل هو الذي أدى الى تأسيس الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. فالاتحاد الاشتراكي رأى فيما بعد أن يكون معضدا بنقابة جديدة هي الكنفدرالية الديمقراطية للشغل التي أصبحت اليوم هي أيضا نقابة مهمة في المغرب، وتضم في صفوفها كثيرا من النقابات العمالية والطلابية والتعليمية... فأنا شخصيا اخترت هذا الاختيار الذي هو اختيار الأغلبية الساحقة داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، بحيث انصرف عدد من الأشخاص الى الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية وكان هذا منتظرا.

كنا قد توقفنا عند رجوعكم مرة أخرى الى ميدان التعليم ؟

رجعت الى التعليم ودخلت الى جامعة محمد الخامس.

- السنة بالضبط ؟

لا أدري بالضبط، ولكن أظن أنها سنة *1964*، دخلت اليها وكان من المفروض أن أبدأ بتعليم الفلسفة، لكن الأستاذ الحبابي الذي كان آنذاك هو أب الفلسفة في جامعة محمد الخامس، لم يشأ أن أضايقه، اقترح علي أن أشتغل بالتاريخ، وأشار علي بعض الاصدقاء أن أقبل هذا الاقتراح، لأنني جئت الى الكلية كلاجئ آنذاك بعد أن قضيت سنوات بعيدا عن التعليم وفي وزارة الشؤون الخارجية.

- ما مركز الأستاذ عزيز الحبابي في الكلية آنذاك؟

كان هو عميد الكلية. لما جئت شعرت بأنني في حالة اللاجئ الذي لابد له من أن يقبل أي شيء اقترح عليه، فقبلت هذا الاقتراح، إذن قبلت التاريخ أول مرة لا كاختيار كنت أقصده أنا شخصيا، ولكن لما مارست تدريس التاريخ أعجبني، وهكذا صار اختياري المؤقت الى اختيار نهائي.

اشتغلت في السنة الأولى بتدريس التاريخ القديم باللغة العربية، لأنه كان آنذاك في التاريخ قسمان : قسم باللغة العربية، ويشتغل به المغاربة وهم قليلون، وقسم باللغة الفرنسية ويشتغل به الفرنسيون، وكان الذي يحتاج اليه قسم اللغة العربية هو تدريس التاريخ القديم، واقترح علي أن أدرس التاريخ

القديم. وفي السنة الموالية جئت الى العميد وقلت له : والآن بعد أن قضينا سنة في تدريس التاريخ أريد أن أعود إلى الفلسفة، فقال : لا، لا، لا. في التاريخ درس ما تشاء. آنذاك اخترت أن أدرس تاريخ الإسلام، لأنني كنت أدرس طلبة الباكالوريا في ثانوية مولاي يوسف قبل الاستقلال دروسا أتقنتها جدا في التاريخ وتاريخ الأدب. وفي التطور الفكري وفي الحضارة. إذن بقي لي تشوق كبير لتلك الدروس الثانوية التي قمت بها قبل خمسة عشر سنة تقريبا.

فلما جاءت هذه الفرصة قلت أعود إلى تدريس تاريخ الإسلام، وهكذا بدأت أدرس تاريخ الإسلام في السنة الموالية. وتجندت لتدريس تاريخ العباسيين بالخصوص (الحضارة الإسلامية)، إذن سرت في هذا الاتجاه، وفي هذه الأثناء هيأت دبلوم الدرسات العليا والتبريز في التاريخ، وحصلت على الشهادات التي كان من الضروري الحصول عليها حتى أصبح أستاذ كرسي في الكلية. وطبعا أنتم تعرفون البقية، يعني شاركت في عدد من المؤتمرات في الداخل والخارج، والندوات وكنت عضوا في اتحاد المؤرخين العرب الذي كان مقره ببغداد، وكنت نائبا للأمين العام في هذه المنظمة، شاركت في ندوة عن تاريخ التراثية في باريس *1950*، وشاركت في ندوات عن ابن خلدون وعن ابن رشد هنا في المغرب. على كل حال نشاط متنوع. وطبعا مازلت إلي الآن أزاول التدريس في السلك الثالث في قسم التاريخ الوسيط.

- أستاذ، على ذكر التعليم الآن، ما هو رأيكم في المسيرة التي سار فيها التعليم وبالخصوص التعليم الجامعي منذ الاستقلال إلى الآن؟

الشيء الذي يشكو منه التعليم في نظري هو عدم الاستقرار في الرأي والتخطيط. كم دعينا من مرة للمشاركة في اللجان التربوية بوزارة التعليم والتربية الوطنية، واتفقنا على خطة معينة، ثم لم تمض سنة أو سنتان حتى تغيرت تلك الخطة، واقترحت أخرى وهكذا يقع نوع من الاضطراب في مسيرة التعليم، وهذا الاضطراب يأتي من عدم الارتباط بمذهب معين فتارة تطرح قضية مواكبة التعليم للحياة العامة بالمجتمع ولضرورة الربط بين النشاط الاقتصادي وتكوين الطلبة: وتارة تطرح قضية البحث وتوسيع التعليم والنظر إلى الجانب التثقيفي قبل كل شيء، وأعتقد أن التعليم إذا أراد أن يؤدي مهمته يجب أن يكون متجاوبا مع الطموح العام الموجود داخل المجتمع، وهذا الطموح لا يمكن

التعرف عليه إلا عن طريق مجلس وطني للتعليم، أو لجنة وطنية كبرى للتعليم، وعن طريق الأخذ برأي المنتخبين على الصعيد الوطني حتى يمكن التعرف على شعور الجميع والتجاوب مع هذا الشعور حتى لا يكون هنالك تنافر بين السياسة المتبعة وبين ما يشعر به المواطنون، من الواجب خلق نوع من التجاوب بين الجهتين، وإذا وقع الأخذ برغبة الفئات المختلفة التي يتكون منها الرأي العام بالمغرب والتي هي معنية بشؤون التعليم، آنذاك يمكن الأخذ بأسلوب الإصلاح الجزئي. بعد مرور تجربة سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات على الأقل، ينبغي عن طريق هذه الهيئة التي تمثل الرأي العام الوصول الى مذهب واضح للتعليم، وعدم التردد بين مذاهب متعددة.

- بالنسبة للمسيرة الجامعية المغربية في تدريس التاريخ؟

بالنسبة لتدريس التاريخ هنا، إذا أخذنا التجربة التي عشناها لحد الساعة، أقول أننا ندرس التاريخ بوسائل ضعيفة ومتخلفة وجد بسيطة، فالتاريخ أصبح يتوقف الآن على عدد من التجهيزات السمعية والبصرية والإعلامية كذلك، بحيث لا نتوفر لا على الخرائط التاريخية الضرورية، ولا على وسائل متابعة البيبلوغرافية، لأن العالم تصدر فيه عدة كتب في التاريخ، ونعرف البعض منها في كثير من الأحيان عن طريق المصادفة. فليس هناك من هو متتبع بصورة منهجية لرصد كل ما ينشر في عالم التاريخ، وتصنيفه وتبويبه حتى نعرف ما يهمنا بالدرجة الأولى،. ونعرف ما يتعلق بالتاريخ العام في العالم بأسره. هنالك تجهيزات أخرى من ناحية إيجاد قاعات في كل الوسائل الممكنة للقيام بتدريس التاريخ مع كل الحاجات الكافية، من سبورات مناسبة، وخرائط مرتبة، على كل حال القاعات تكون مرصودة لهذا الغرض، ثم إن ما يسمى بشعب التاريخ هي عبارة عن مكتب صغير لا يمكنه أن يقوم بأداء وظيفته كما ينبغي، حتى إذا أراد الأساتذة أن يجتمعوا في كليتهم فإنهم يجدون أنفسهم في ضيق، بحيث ليست هناك قاعة كافية، وهنالك بالطبع بعض المواضيع في التاريخ التي ينبغي أن تؤسس لها معاهد، لقد فرحنا مثلا عندما أسس معهد الدراسات الافريقية، ولكن معهد الدراسات الافريقية إذا كان مرحبا به سلفا، فهنالك معاهد أخرى يجب أن تنشأ. نحن لا نفتأ نتحدث مثلا عن المغرب الكبير، المغرب العربي الكبير، فأين هو المعهد الذي يشتغل بالدراسات

التاريخية والدراسات المختلفة التاريخية والغير تاريخية عن المغرب الكبير؟ كان من باب أولى وأحرى أن نبدأ بمعهد الدراسات المغاربية، وأن يكون هناك معهد محترم ومدير، كذلك بالنسبة للعالم العربي نفسه، نحن في اتصال دائم مع العالم العربي، ننتمي إلي الجامعة العربية ونتضامن مع قضايا العرب كلها، وبالخصوص قضية فلسطين، فأين هو المعهد الذي يمكنه أن يجمع بين هذه القضايا بأكملها، هنالك موضوع ثالث يستحق هو أيضا معهدا، وهو معهد الدراسات الأندلسية، نحن قريبون من إسبانيا، وحياتنا كلها لا نفتأ نتحدث عن الأندلس ومجيء الأندلسيين إلى المغرب، وذهاب المغاربة إلى الأندلس، وتاريخ المغرب ممتزج بتاريخ الأندلس طوال قرون. إذن كان المرغوب فيه أن يكون هنالك معهد خاص بالدراسات الأندلسية، المصريون ذهبوا إلى إسبانيا وخلقوا المعهد العربي لدراسة الأندلس الإسلامية.

- هناك محاولة غير جدية في المغرب، هي جامعة المعتمد بن عباد!

ولكن جامعة المعتمد بن عباد هي مؤسسة خارجة عن الجامعة، يشارك فيها أناس يأتون من الخارج، وبعض الأساتذة أحيانا، ولكنها لا يمكن أن تعتبر كمؤسسة جامعية بالمعنى الدقيق للكلمة، يعني المؤسسة الجامعية يكون لها نشاط مستمر وتقوم بجمع كل ما يمكن جمعه من كتب، ومن الدراسات، وتستدعي المحاضرين، وربما يكون لها دور أكثر عطاء من جامعة صيفية دورية تلتقي أسبوعا أو أسبوعين في السنة، وهذا لا يكفي في نظري. إذا بالنسبة لتدريس التاريخ، هنالك الكثير مما يُعمل، لا من حيث التدريس ولا من حيث الزيادة في تأطير الطلبة، ولا من حيث تدعيم تدريس التاريخ لإنشاء معاهد مناسبة كما يقتضيه الحال، ويكفي أن نذكر مثلا ما دمت أتحدث عن الأندلس أننا في هذه السنة يجب أن نحتفل بمرور خمس مائة سنة على سقوط غرناطة، فماذا فعلنا في هذه السنة؟ هل هيئنا ندوة مناسبة؟ هل استطعنا أن نقوم بعمل ما؟

لقد دعيت مؤخرا لحضور ندوة في تونس، واطلعت على منشور في هذا الصدد: حول مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية وتوثيق المعلومات موجود بتونس والذي يسيره الأستاذ التميمي، يذكر هنا المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية بمناسبة 500 سنة لسقوط غرناطة 1492م.

فهو يذكر في هذه النشرة التي سلمني إياها مشاركة عدد من الباحثين منهم إسبانيين، وأوربيين وأمريكيين، وعرب. وهنا عدد من الأسماء المهمة كلها ستجتمع فيما بعد لإحياء ذكرى هذا الموضوع التاريخي، إذن حينما أقرأ مثل هذا المنشورأشعر بنوع من الغبن، كوننا نحن أقرب الناس إلى الأندلس من حيث الحيز، ومن حيث التاريخ، ومن حيث كل شيء، ولا نفعل شيئا. وبهذه المناسبة أستطيع أن أقترح عليكم كأساتذة في طليعة أساتذة الجامعة المغربية، أن نفكر من الآن في تنظيم ندوة على هذا الموضوع، يشارك فيها كل من أراد من الأساتذة، ويكون ذلك إما في الدار البيضاء في جامعتكم التي اشتهرت بنشاطها، والتي يمكن أن تضيف هذه المنقبة إلى مناقبها الأخرى.

- نعود مرة أخرى إلى بعض التساؤلات في إطار التاريخ دائما؛ تكونت على أيديكم، وعلى أيدي بعض الأساتذة مجموعة من الطلبة، الذين يحاولون الآن أن يحملوا مشعل البحث التاريخي والعمل الدؤوب فقط وجهة نظركم في أعمال هؤلاء الطلبة والبحث التاريخي بشكل عام. بمعنى آخر تقويم مرحلة ثلاثين سنة من البحث الجامعي؟

في الواقع أقدر غاية التقدير العمل الذي بذل في هذه الفترة التاريخية من لدن طلبتنا الذين أصبحوا الآن أساتذة لأنهم على كل حال استطاعوا أن يحافظوا على المستوى الذي كنا نريده لهم، وأن يستفيدوا من تجربة الأساتذة الذين تكونوا على أيديهم، وأن يتشبثوا بالروح المنهجية، هذا هو المهم، طبعا هذه الأبحاث وهؤلاء الأساتذة مازالوا لم يعطوا كل ما يمكنهم أن يعطوه، ولكن ما تحصّل الأن على أيديهم كاف ليعطينا تطمينات وضمانات بالنسبة للمستقبل، هنالك بالطبع بعض الجوانب التي مازالت في حاجة إلى مزيد من الدرس والبحث، وننتظر مجهودات أخرى، ولكن لا يمكن في ثلاثين سنة أن ننتظر إشباع كل الجوانب، لدينا مثال واضح: الثورة الفرنسية مر عليها قرنان، وفي بحث تاريخها السنة الماضية ظهرت دراسات جديدة وكتب جديدة، ومن خلال هذه الدراسات والكتب الجديدة تبين أن المؤرخين الذين كتبوا عن الثورة الفرنسية فيما سبق لم يعطوا الموضوع حقه، ولأنهم غفلوا عن أشياء، وأنا لا أشك أن ما نفعله اليوم وما نكتبه عن تاريخ بلادنا سيأتي أحفادنا ويقولون هذا غير كاف، ولكن البحث التاريخي لا يأتي بالكلمة النهائية، دائما في حاجة إلى

مراجعة وتحقيق جديد، المهم أن نضع أنفسنا في القطار وأن يسير القطار. حتى إذا وقف فإنه سيستأنف مسيرته فيما بعد.

- إذا عدنا إلى الأستاذ محمد زنيبر تكوينا وتدريسا : نجد الفلسفة، الأدب، التاريخ، هذه المسالة كنت انتبه إليها منذ أول مرة درست فيها على الأستاذ زنيبر، كنت الاحظ دائما في التاريخ حضور الفلسفة وحضور الأدب، واعتقد ان كل الذين درسوا على الأستاذ زنيبر مازالوا يحفظون عن ظهر قلب الأبيات الشعرية التي كان يستشهد بها في درس العباسيين، يعني ان الأدب كان حاضرا، اكثر من ذلك كانت الثقافة دائما حاضرة، الحضارة حاضرة، مناقشة الفكر حاضرة، بمعنى ان الفلسفة موجودة بشكل كبير، ثم مؤخرا حضرت في ندوة كانت قد نظمتها اعتقد إما شعبة الفلسفة او جمعية البحث والفلسفة، وشارك الأستاذ زنيبر في الندوة، واول ما بدا به في مداخلته هو البيت المشهور : نقل فؤادك حيث شئت من الهوى... يعني هل الحنين إلى الفلسفة دائما موجود؟

طبعا لدي الآن كتب كثيرة في الفلسفة في مكتبتي، بحيث كلما وجدت الفرصة أعود إلى الفلسفة وأقرأ بعض الأشياء، ثم إن التاريخ لا يستغني عن الفلسفة، التاريخ إذا أردنا فقط أن نقف عند الأحداث كأحداث فقد نستغني عن الفلسفة، ولكن إذا أردنا أن ننفذ إلى ما وراء الأحداث لنعرف أشياء أخرى ولنخرج بتعاليق فلا بد أن نتشبع بالمنهج الفلسفي شيئا ما، ولهذا فالتاريخ ربيب الفلسفة، فكثير من المؤرخين تفلسفوا وكثير من الفلاسفة صاروا مؤرخين، بحيث المسألة مطروحة على المفكرين، وما نريد أن نقوله هو أن المؤرخ لا يحق له أن يكون متعصبا لمهنته كمؤرخ، ويعتبر الأشياء الأخرى لا قيمة لها، بالعكس ينبغي له أن يظل صورة مفتوحة، وأن يؤمن بما يسمى بتلاقح العلوم، وتعاون المعارف، لأن المؤرخ في الحقيقة يجمع العلوم كلها. فهناك طبعا التاريخ بمعناه الواسع، التاريخ السياسي، التاريخ الاقتصادي... ولكن هناك تاريخ العلوم، وهناك من يؤرخ للرياضيات، فهو محتاج إلى من يكون عارفا بالرياضيات، وهناك من يؤرخ للأدب، فهو محتاج لأن يؤرخ للأدب... كل هذا يدخل في علم التاريخ، بحيث التاريخ هو غطاء وغشاء لكل العلوم، ولهذا لا مناص من التشبع بثقافة واسعة من ضمنها الفلسفة.

- في هذا السياق استاذ، في شعب اخرى اساسا نجد ان اغلب الأساتذة استطاعوا ان يربطوا بين الدرس الجامعي وبين التاليف الذي ينشر في الكتب، بل إن دروسهم في اغلب الأحيان هي التي كانت كتبا واخرجت للسوق، في شعبة التاريخ هذه المسالة نادرة جدا. فإذا اخذنا الأستاذ زنيبر كمثال درس العباسيين كان يلهبنا كثيرا، ومع ذلك الأستاذ زنيبر لم يخرج هذا الدرس على شكل كتاب؟

حقيقة هذا الدرس كنت أهيئه وأقدمه لطلبتي على أساس أنه عمل مؤقت يحتاج إلى مراجعة، ومنذ ذلك الحين وأنا ألتمس لنفسي فترة من التفرغ لأراجع تلك الدروس وأضيف إليها ما يستحق أن يضاف، وأستفيد من كتب أخرى صدرت من علماء آخرين، حتى إذا قدمت شيئا لا يكون متخلفا بالنسبة لما هو موجود، فالذي أتمناه على الله هو أن يمد شيئا ما في العمر حتى أستطيع إرضاء هذه الرغبة التي يشاركني فيها كم من واحد، وأنا في الواقع أشتغل في هذا، وأريد أن يظهر لإخواننا في المشرق أننا لا نتعصب لتاريخ المغرب، وأننا نستطيع أن نؤلف في تاريخهم، نعرف عن العباسيين، عن الفاطميين، عن الحضارة الإسلامية بوجه عام، أريد أن أقدم لهم الدليل، وعسى أن يكون هذا ممكنا في القريب العاجل إن شاء الله.

- نعود إلى مسالة اخرى : في إطار اهتمامات الأستاذ محمد زنيبر المتعددة، في مرحلة معينة كنا نشاهد كتابة من الصنف الأدبي كالقصة.. هل هذه الكتابات عند محمد زنيبر كانت مرتبطة بمرحلة معينة، وتوقفت؟ ام هناك تفكير جديد في المسالة، او كتابات اخرى لم تطبع او لم تنشر؟

في الواقع، كانت عندي مشاريع كثيرة في الآداب ومازالت، فأنتم ترون الآن أمامي جزء من رواية من ثلاث مائة صفحة تقريبا، ولكنها رواية فيها نوع من التاريخ تتحدث عن فترة المقاومة، وقد أخرجت مسرحية تاريخية.

- حول هذا الصنف من الرواية مثلا، حول فترة الحركة الوطنية اساسا، ربما من مشاكل الباحثين ان ما هو مكتوب عن الحركة الوطنية هو المكتوب مباشرة، نفتقر إلى هذا الصنف الأدبي المكتوب بشكل غير مباشر، والذي يحسم في بعض الأمور بطريقة غير مباشرة الآن، مثلا لما

نعود إلى روايات نجيب محفوظ وغيرها، نرى أنه يتحدث عن المجتمع في فترات تاريخية معينة بشكل قد يفيد المؤرخ، هذه المسألة غير موجودة لدينا نحن في المغرب، بماذا تبررون ذلك؟

جوابا على سؤالك، حاولت أنا شخصيا في هذه الرواية التي لم أنشرها بعد، والتي سأتحدث عنها حديثا سابقا لأوانه، لكن مع ذلك سأثير هذا الجانب الذي طرحته. إن المؤرخ بطبيعة الحال ملتزم بنوع من الأسلوب في الكتابة لا يساعده دائما على النزول إلى بعض الجزئيات والتفاصيل التي تصور المجتمع. بينما القصاص والروائي وحتى الشاعر يستطيع بأسلوبه الخاص أن يبرز هذه الجوانب، وأن يمكن قارئه من الرجوع إلى الجو الذي كان سائدا في فترة ما، وهنا تظهر مهارة الكاتب ومقدرته على إحياء الماضي، وإعطائه نوعا من الدينامية حتي يصبح قادرا على تصوير ما لم يستطعه المؤرخ، فأنا مثلا في هذه الرواية التي ذكرت لك حاولت أن أصور جوانب من المجتمع الذي كان سائدا في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات، والذي ربما يختلف كثيرا عن ما نعرفه الآن وعن ما يعرفه بالخصوص أبناء هذا الجيل الصاعد، حاولت أن أذهب بالقارئ إلى جو المقهى، إلى جو الشارع، إلى جو البيوت وأحاديث الوطنيين مع بعضهم، وقد نفعتني ذاكرتي الشخصية، لأنني كنت في ذلك الوقت موجودا، ورجعت بذاكرتي إلى تلك الفترة.

- ألا تلاحظ استاذ، أن الروائيين والقصاصين هنا في المغرب لم يستطيعوا ولوج هذا الباب بشكل جدي، حتى المحاولات الموجودة فيها نوع من النزعة المباشرية أحيانا، وحتى القصدية في بعض الأحيان، يعني لا نحس أنك فعلا تقرأ رواية.

في الواقع، الرواية في المغرب أصبحت فنا مختلف الأشكال والأنواع، هنالك أشكال تسير مع الرواية الكلاسيكية المباشرة التي تسعى إلى سرد الواقع وتقديمه بصورة من الصور وتكون مفهومة ومهضومة لدى جميع القراء. وهنالك أنواع أخرى من الروايات التي يستعصى على القارئ العادي إدراكها وفهمها، وهذا النوع هل يستطيع مثلا أن يصور المجتمع؟ هل يستطيع أن يبين جوانب يشتاق إليها اليوم من يريد أن يعود إلى ذلك الماضي؟ أطرح السؤال ولا أريد الجواب عليه. لأنني إلى حد الساعة متردد في الحكم على هذه النقطة.

- ربما أتعبناك أستاذ شيئا ما، لكننا نريد في ختام هذه الجلسة الأولى معكم والممتعة جدا، نريد أن نختم بسؤال فرضه المكان : أمامنا مجموعة من الآلات الموسيقية، وتُعرف عن الأستاذ زنيبر اهتماماته بهذا الجانب، هل يمكن أن ينورنا الأستاذ حول هذا الباب.

أنا منذ كنت صغيرا، وأنا مولع بالطرب والموسيقى، ووجدت في أسرتي بعض الأخوال كانوا مولعين، فأولعوني فتعلمت عليهم، وبقيت في أوقات الفراغ أحب أن أستمع، أو أحاول أن أوقع توقيعا موسيقيا، فأنا أعيش في هذا الجو.(*)

(*) عند هذا الحد توقف الحوار مع الأستاذ محمد زنيبر، مع وعد بمتابعته فيما بعد.